الفصل الثاني

أثر الإسلام في وحدة الثقافة العربية

د. إبراهيم رشاد محمد صبري(*)

١- تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد(ﷺ).

وبعد...،

فإن ثقافة كل أمه تمثل مقومات وجودها، وشخصيتها، ولها حدودها المعروفة.

كما أنها تمثل النبع الذي يعطيها ماء الحياة والقوة، ولذلك كان من الضروري لأمة تحافظ على حياتها ومقوماتها، أن تحافظ دائما على صفاء هذا النبع، وعلى استمرار عطائه، وتحول دون تجفيفه أو تلوثيه أو تسميمه، حتى لا تقضى على حياتها.

وإذا كانت الثقافة لأمة جزءاً من ذاتها ومقوماتها الشخصية، فإنه يتعين على الأمة أن تحافظ على ذاتها وشخصيتها، أكثر مما تحافظ على مجرد حياتها ومالها، لأن المعتقدات وما يتصل بها أغلى عند الإنسان، وفى الحقيقة، من المال والنفس.

ومن هذا كان لكل أمه ثقافتها الأصيلة، التي كونتها عوامل متعددة، ورسختها في النفوس، فأعطت الأمة روحها وطعمها الذي يختلف عن طعم ومذاق وروح الأمم الأخرى وثقافتها التي كونتها.

لذلك تختلف الثقافات، وتتنوع بين فرد وفرد، وبين مجتمع ومجتمع، كما تتنوع الحضارة، لأنها منبثقة من الثقافة وقائمة عليها، فمن نوع ثقافة الأمة تكون حضارتها،

(*) أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد ورئيس قسم الدراسات الإسلامية ـ كلية الآداب بقنا ـ جامعة جنوب الوادي.

obeikandl.com

تتغذى منها، وعلى حسب نوع الغذاء الثقافي تكون حضارة الأمة، حضارة صالحة أو حضارة فاسدة، حضارة تحكمها النظرة المادية وتقديس المادة، أو حضارة قامت على أسس وقيم فاضلة ويصبح من الصعب نقل ثقافة أمة إلى أمة أخري، وزرعها فيها.

والثقافة العربية من أهم وأول مقوماتها، الدين بعقائده وآدابه والعروبة. وإذا انفكت عرى الارتباط بين الأمة- نفسيا وعمليا- وبين دينها ونظمه وتعاليمه المؤثرة فيها، تفتتت ثقافة الأمة، وضعفت بالتالي حضارتها، وتمكن عدوها منها بعد ضعف مقاومتها.

وإذا أهملت أمه لغتها وآدابها وموروثاتها القديمة، ولم تعن أو تعتز بها، انفسخ المجال تلقائيا للغة وآداب وتقاليد أخرى لتحل محلها، وتغزوها على مر الزمن وبالتدريج.

ولا ريب أن الثقافة العربية المعاصرة هي حلقة من حلقات متصلة، منذ فجر الإسلام، من حيث إن الإسلام هو الذي صنع الثقافة العربية بمعطياته الأساسية (القرآن والسنة) التي قدمت عطاء ضخما للسان العربي، ولأمة الإسلام وللإنسانية كلها، هذه المفاهيم والمعطيات، والقيم التي أثرت حياة المسلمين الاجتماعية وفكرهم، فيما يتعلق بالجوانب الثلاث: العقيدة والشريعة والأخلاق، على نحو لم تظفر أمه بمثله من قبل.

وتقوم في العصر الحديث محاولات تغريبية قادها الاستشراق والتبشير والعلمانية ترمى إلى فصل الثقافة العربية المعاصرة عن حلقاتها المتتابعة، وعن تيارها الأصيل الممتد منذ فجر الإسلام، في محاولة لخلق ما يسمى بالنظرة الغربية العلمانية المنفصلة عن الماضي والتاريخ القديم والتراث.

وهي محاولة باطلة وزائفة تهدف إلى تحويل مجرى الثقافة العربية وجهه غربية وذلك بإدخال تيارات وافدة.

كما أن الدعوة إلى تحرير اللغة هي دعوة مغرضة يراد بها عزل اللغة العربية عن القران، والإيغال بها في متاهات العامية، وبذلك تنفصل الأقطار العربية كأمة، وتنعزل عن ثقافتها وتراثها الإسلامي.

وفى هذه الأيام تهدد رياح العولمة كل الهوايات الوطنية المهتزة، وتوشك أن تمحوها أو تهمشها. والخطر الأكبر الذي يهدد الثقافة العربية، هي خضوعها لعوامل الفرقة والتناحر بين عناصرها المختلفة، والسعي من جانب بعض أطرافها لإلغاء الآخر واستبعاده، أو حتى تجاهله والتقليل من دوره فيها.

وقوة الثقافة العربية في وحدتها، فقد بزغ نورها مع الدين الإسلامي، وانتشرت بانتشاره، فهي لا تخص بلداً بعينه، ولا شعبا بمفرده، ولا جماعة عرقية مهما بلغت درجة أصالتها، وإنما تخص جماع روح هذه الأمة.

والحفاظ عليها من الاحتواء والتبعية والانصهار في ثقافات الأمم الأخرى، لا يكون إلا بالإسلام، وتلك قاعدة أساسية قام عليها الفكر الإسلامي، والثقافة العربية ذات المصدر الإسلامي.

ومما لا شك فيه أننا لا نرفض الأفكار الصالحة لنا، أياً كانت. وكان نوعها ومصدرها، "فالحكمة ضالة المؤمن، أني وجدها فهو أحق بها"، لكننا نرفض الفكر الذي يحمل طابعا غير طابعنا ومبادئنا وقيمنا وتعاليم ديننا، نرفض الفكر الذي يتعارض مع تقاليدنا وموروثاتنا، الذي يتصادم مع لغتنا وآدابها، ومع إحساسنا بالجمال. نرفض أي فكر يهون من شأن عقيدتنا أو وطننا وأرضنا وأمتنا، أو من جنسنا العربي، ولو كان صادراً عن واحد منا. نرفض الفكر الذي يتصادم مع ثقافتنا وأفكارنا الأصيلة، إننا نقف في وجه الغزو الثقافي.

إن الثقافة العربية الإسلامية هي صلة وصل، وجسر تلاق بين مشرق العالم ومغربه، وبين شماله وجنوبه، وكانت دائماً ـ وآمل أن تظل كذلك ـ بمنزله السفير فوق العادة، الذي يتجاوز الحدود الجغرافية بأبعادها السياسية، ويعلو على الخلافات اللحظية.

واللغة العربية ـ هي لغة هذه الثقافة ـ ارتبطت بهذا الكتب العظيم، القران الكريم، الذي حفظها خمسة عشر قرنا، فأبقى فكر القرن الأول حياً نابضاً لقارئ اليوم، دون أن يحتاج إلى معين.

كما أن اللغة العربية هي لغة أمة، ولغة فكر. فمن حيث هي لغة أمه هي الأمة العربية، تعد حافظة لوحدة شعوب هذه الأمة وفكرها وتراثها. ومن حيث لغة فكر فهي لغة المسلمين في مختلف إنحاء الأرض، ويبلغ عددهم اليوم ألف ومائتين مليون تجمعهم جامعة القرآن والسنة والفقه، وكلها ميراث اللغة العربية.

وهكذا ارتبطت اللغة العربية بالإسلام والقرآن، وعاشت معه ونمت في ظله، وكانت لغة الثقافة العربية، وقد أتاح لها الإسلام أن تتغلب على مختلف اللغات في العالم الإسلامي، وأن تأخذ المكان الأول فيها. وكانت قدرتها على التطور عاملاً فعالاً في بقائها

واستمرارها وتطورها. وبقاء الأمة عالياً ما بقيت لغتها حية وقوية. وهذا هو موضوع بحثنا الماثل.

٢- العرب والإسلام:

لم يكن المجتمع المكي إبان ظهور الدعوة الإسلامية مجتمعآ تتحكم فيه الخلافات القبلية فقط، بل كان مجتمعاً يكاد يكون طبقياً بالمعنى الحديث للكلمة. فقد تمثل في الهوة الواسعة التي كانت تفصل بين الأغنياء والفقراء والأشراف والعامة والسادة والعبيد. وقد جاءت الدعوة الإسلامية رفضاً تاماً للمظالم والآفات التي كانت تتحكم بهذا المجتمع، وقد طرحت بديلاً يتلخص بالمساواة والعدالة والإخاء بين المؤمنين، أتباع الدين الجديد، معلنة الحرب على كل ما ينتمي إلى الثورة المضادة من فلول مجتمع الظلم والطغيان والتمييز بين المواطنين، واستعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. تجسدت عدالة الإسلام ومساواته وإخائه بين المؤمنين في العبادات والشعائر الدينية والتشريعات والممارسات[١].

كما أن الإسلام هذب في العرب العصبية، فأزال العنجهية من بين صفوفهم، وحارب فيهم الفرقة والشتات، وجمعهم على كلمة سواء، وألف بين قلوبهم، صيرهم بعد العداوة أخوة متحابين، ونقلهم من نظام القبائل المتفاخرة المتكاثرة المتناحرة، إلى مجال الأمة المتحدة المتكافلة المتضامنة، التي يحس كل عضو فيها بمشاعر بقية الأعضاء، وصدق المولى ﷻ إذ يقول: ﴿... إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً...﴾[٢].

هذا الإسلام الذي نادى بالتوحيد، استطاع أن يشعر ذلك العالم المشتت الأطراف بوحدته، وأن يجعل هذه البيئة المترامية الأطراف حول الرافدين وحول النيل، وامتداداً إلى الشرق في أرض فارس، حتى ما وراء النهر، تشعر بأنها تكون حضارة واحدة، أو أمة واحدة، يربطها شعور واحد.

وقبل أن يجيء الإسلام، كانت المفاهيم والمدلولات عند العربي الجاهلي لا تعنى إلا رمح المحارب وقوسه، فما أن ظهرت الدعوة الإسلامية بكل ما جاءت به من خضم زاخر في مبادئ الأخلاق العربية والاجتماعية جميعاً، حتى قفزت المفاهيم قفزة هائلة، نقلتها من ميادين الرماح والأقواس إلى فطنة قفزت ليكون قادراً على مشكلات الحياة.

---

(١) راجع: معالم على طريق تحديث الفكر العربي- معن زيادة-عالم المعرفة، الكويت-ص١٠٤.
(٢) آل عمران: (١٠٣).

وانتقل الإسلام بالعرب من المحلية الضيقة في الجزيرة العربية إلى العالمية في الإمبراطوريات المجاورة في الأمصار.

ولم يقف الإسلام عند العروبة، وإن كان العرب هم العنصر الفاعل في البداية، لأنهم كما قال عمر بن الخطاب: مادة الإسلام. ودخلت شعوب أخرى أكثر تقدماً، منهم الفرس، وصبغ هذه المتجمعات بصبغته.

كما كان من أهداف هذا الدين الحنيف، نقل ولاء الفرد من القبيلة وأعرافها البالية، إلى الأمة المسلمة ومثلها العليا. لذلك نراه يلجأ إلى العقل، ليحرك به الوعي الذاتي للفرد، ويدفع به إلى الاستقلال في الرأي، ويحمله على فك ارتباطه بالقبيلة، فتتدافع سور القرآن، سواء منها المكي أو المدني بآيات الدعوة إلى النظر العقلي.

وبدت الحاجة إلى اعتماد العقل أكثر بعد اتساع رقعة الإسلام، ودخول أمم متحضرة فيه، وبروز مشكلات جديرة معقدة لم تألفها نصوص الشرع، فقد تأكد مبدأ الرأي والقياس والاجتهاد، مما يعكس التلاحم بين العقل والنقل في أمور الدين.

وعن الإسلام نشأت الحضارة العربية، ومن الحضارة العربية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مختلف الجنسيات، ولكن بلسان عربي وفى ظل الدين الحنيف.

لقد خطب النبي محمد (ﷺ) خطبة جامعة فقال: "يا أيها الناس، إن الرب واحد، والدين واحد، والأب واحد، ومن أسرع به عمله، لم يبطئ به نسبه، ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه، ومن دخل في هذا الدين فهو من العرب".

ولم يكن الإسلام ديناً بالمعنى التقليدي للدين، وإنما هو نظام جديد لا يكتفي بمعالجة القضاياً التي عالجتها الأديان من قبله، من تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فحسب، أو تنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه في داخل مجموعة صغيرة مما ينطبق على اليهودية، التي لم تعد في نهاية تجوالها- بعد أن حرفها اليهود على حسب أهوائهم- سوى ديانة قومية خاصة لمجموعة من البشر بعينها.

وأتت المسيحية لتغير هذه النظرة، ولتجعل من الله الذي ادعى اليهود أنه إلههم القومي دون بقية البشر، وأنهم شعبه المختار دون جميع الناس إلهاً لكل الناس، ولتجعل رسالة الدين لكل البشر محبة وإخاء، ولكنها لم تتوسع في تنظيم حياة المجتمع، بل تركت ما لله لله، وما لقيصر لقيصر[٣].

(٣) تاريخ العلوم عند العرب ـ أحمد سعيد الدمرداش ـ دار المعارف ـ ص٦.

إن اختيار العرب لحمل أمانة الدعوة الإسلامية، واختيار اللغة العربية لنزول القرآن، من الأمور التي ما تزال بعيدة الأثر في دراسات الأجناس واللغات والأمم. لقد انتقل الإسلام بالعرب من المحلية الضيقة في الجزيرة العربية إلي العالمية، حيث اختار الله هذه الأمة القائمة في قلب الجزيرة العربية لهذه الرسالة فاستجابت وحملت لواء الأمانة، واندفعت بها إلى آفاق الأرض، واستطاعت أن تقيم هذا المجتمع الإسلامي الكبير في فترة قليلة لا تتجاوز سبعين عاما، واستطاع الإسلام إن يعطى الأمة العربية هذه الوحدة وهذا الشكل الذي جعل منها أمه، بعد أن كانت مجموعة من القبائل، كما أعطى اللغة العربية هذه المكانة الخطيرة بين لغات الشرق والغرب حين نزل القرآن بها، هذا القرآن الذي حفظ هذه اللغة من التمزق إلى لهجات على هذا المدى الطويل، بينما تمزقت لغات كاللاتينية، وماتت لغات أخرى كثيرة، واستطاع العرب وحدهم إن يفهموا النصوص المكتوبة منذ خمسة عشر قرنا، بينما لا يتاح الآن لأمة من الأمم أن تفهم من نصوصها المكتوبة ما يتجاوز عمره ثلاثة قرون.

٣- موقف الإسلام من العرب واللغة العربية:

في الحقيقة إن الإسلام بمبادئه السمحة لم يقف من العرب واللغة العربية موقف المجافاة، بل يعتبر حبها من الإيمان، والسبيل إلى عزة الإسلام. يقول سبحانه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٤) ويقول: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾ (٥) ويقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ (٦). ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧)، ففي قوله سبحانه: ﴿...قُرْآناً عَرَبِياً...﴾ إظهار لفضل اللغة العربية على سائر اللغات، وفى قولة: ﴿...لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾، ﴿...جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾، ﴿...بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ...﴾ إظهار لشرف العرب اللذين بعث الرسول منهم، ونزل القرآن الكريم بلغتهم، وبزغ النور الرباني من جزيرتهم.

وفى فضل العربية يقول (ﷺ): "يا أيها الناس، إن الرب واحد، وإن الأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم

(٤) فصلت: (٣).
(٥) الزخرف: (٤٤).
(٦) التوبة: (١٢٨).
(٧) الجمعة: (٢).

بالعربية فهو عربي "[٨]، ويقول (ﷺ): "ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان "[٩].

فالعربية هي لسان الإسلام، ووعاء ثقافته، ولغة كتابه وسنته، والعرب هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته الأولون، وهم الذين بعث فيهم الرسول(ﷺ) من أنفسهم ليتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ثم ينطلقوا في الأمم دعاة ومعلمين.

وأرض العرب هي أرض المقدسات الإسلامية، فيها الكعبة البيت الحرام وقبلة أهل الإسلام. وفى أرض العرب مسجد النبي (ﷺ)، ومثوى رفاته الشريف وفيها كذلك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

٤- معنى الثقافة:

جاء في معجم مجمع اللغة العربية: الثقافة: كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق، وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد والمجتمع... وفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الأولى ذات طابع فردى وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية، في حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعي ومادي غير أن الاستعمال المعاصر يكاد يسوى بينهما.

ففن الثقافة العامة تشمل الجانب الفكري والروحي من الحياة، فهي في مفهومها الجديد: هي نمط الحياة وأسلوبها، وإذا كان العلم لا وطن له، فإن الثقافة لها وطن.

والثقافة العربية ذات جذور ضاربة في الأرض، وذات فروع ممتدة تحتل رقعة واسعة في جميع الاتجاهات.

ولا يجوز لنا أن نتصور أننا نستطيع أن نبعث هذه الثقافة العربية بعثاً جديدا إلا إذا غذينا هذه الشجرة عند جذورها الضاربة في أرض الأمة العربية، وعند فروعها وأوراقها الممتدة إلى خارج الأمة، وإلا إذا نظرنا إلى ثقافتنا على أنها عين الحياة ووجهها المعبر وشخصيتها الخالدة.

كما عرفت الثقافة بأنها "مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولى في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعة وشخصيته "[١٠].

(٨) حديث رواه الحافظ ابن عساكر عن مالك.
(٩) حديث رواه ابن كثير عن معاذ بن جبل ﷺ.
(١٠) شروط النهضة ـ مالك بن بني ـ ت: عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر، سورية ١٩٨٦م ص٨٣.

وهـذا التعريـف للثقافـة يعكـس حـضارة معينـة، والـذي يتحـرك في نطاقـه الإنـسان المتحضر، كما يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعـة، أي (معطيـات) الإنـسان، ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هـذه المعطيـات في كيـان واحـد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات.

ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، فالشعب الذي فقد ثقافته في جميع أدوارها من لدن آدم- لا يسوغ أن تعتبر علماً يتعلمه الإنسان، بل هي محيط به، وإطار يتحرك داخله، يغـذى الحضارة في أحشائه، فهي الوسط الذي تتكـون فيـه. جميـع خـصائص المجتمـع المتحـضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه.

وإذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقى والتمدن، فإنها أيـضا ذلـك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية.

وعلى ذلك فإن الثقافة تتدخل في شئون الفـرد، وفـى بنـاء المجتمـع، وتعـالج مـشكلة القيادة فيه، كما تعالج مشكلة الجماهير. وقد أورد المسدي وصـفا مانعـا للثقافـة العربيـة، معترفا إياها بأنها "مناط الشخصية العربية، ومستودع قيمها، ووعـاء حكمتهـا، وحقيقـة هويتها الحضارية"(١١).

فمن خصائصها، أنها ثقافة إنسانية أصـيلة، شـاملة لمظـاهر المـادة والـروح، ذا عراقـة تاريخية، تتميز بقيم فكرية عالية وقيم الحق والعدل والمساواة، واحترام المعرفة، ثقافة تتمثـل الثقافات الأخرى دون إذابة أو ذوبان، تنفرد بجهاز لغوى ليس له مثيل في السعة والمرونة.

٥- أثر الإسلام في وحدة الثقافة العربية:

إن الإسلام دين ورسالة سماوية ملهمة، جاءت نتائجها على أرض الواقع تشبه الثـورة ثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.

عالمية الرسالة الإسلامية، وتوجه القرآن والإسلام عموماً إلى جميـع الـشعوب والأمـم، والتوحيد الشامل، والتنزيه المطلق الذي أزال البدائل والوسائط بـين الإنـسان والله، منتزعـاً طابع القداسة عن أي سلطة إلا السلطة الإلهية، والخطاب العقلاني الـذي تميـز بـه القـرآن، والعدالة والمساواة والإخاء بين بنى الإنسان، المؤمنين منهم بشكل خاص، هي أهـم المبـادئ

(١١) الثقافة العربية وعصر المعلومات ـ نبيل علي ـ عالم المعرفة، الكويت ص١٢٨.

التي شكلت الأرضية الصلبة الثابتة التي تأسست عليها الثورة الثقافية، بل الثورة الشاملة التي جاء بها الإسلام[١٢].

انطلق العرب مزودين بهذه المبادئ الأساسية، مواجهين ثقافات شعوب العالم رغم أن أكثر هذه الشعوب كانت تبز العرب في إنجازاتهم المادية والعلمية المعرفية بشكل عام، إلا أن ما أحدثته الثورة الثقافية في داخل الجزيرة، والآفاق الرحبة التي فتحتها أمام حملة الرسالة الجديدة، جعلت هؤلاء لا يشعرون بأي مركب نقص أمام الثقافات التي واجهوها، واستطاعوا أن يفيدوا منها على نطاق واسع، وأن يستوعبوها ضمن إطار ثقافتهم الجديدة. وقد أثمر ذلك مركباً ثقافياً جديداً هو الثقافة العربية الإسلامية التي شكلت الشريحة العليا لمجموعة من الشعوب الإسلامية التي استظلت بظل حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية. وقد أصبحت هذه الحضارة واحدة من أبراز الحضارات التي عرفها العالم.

وصبغت الثقافة العربية بالصبغة الإسلامية التي أعطتها صفة القوة والصمود أمام أي ثقافة أخرى، وأثبتت القيادة العربية الإسلامية قدرتها على اكتساب صناعة الإدارة والسياسة مع القتال، وتلخصت الخطوط العريضة للإدارة والسياسة العربيتين الإسلاميتين في: احترام عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها وتقاليدها، فلم تحمل الأمم والشعوب المغلوبة على اعتناق الإسلام ـ كما تؤكد الأحداث والوقائع التاريخية ـ فقد كان الهدف: رفع الظلم عن الرعايا، واكتساب ثقتهم وعدم تهديدهم في حياتهم وأرزاقهم، واعتبارهم أخوة لهم إن لم يكن في الدين، ففي العلم والمعرفة والمشاركة في الإنسانية.

"وكان العرب بعد أن يستتب لهم الأمر في مجتمع من المجتمعات، يستعينون بأبناء ذلك المجتمع، ويفيدون من خبرتهم وثقافتهم وتراثهم السابق، وقد نهجوا هذا المنهج في ميدان الإدارة والسياسة عموماً تأليفاً جديداً يضم تراث العرب الإسلامي، وما قبل الإسلام، إلى جانب ما أخذوه واقتبسوه من تجارب غيرهم، تجد طرفاً من هذا، وطرفاً من ذاك، إلا أنك تجد فيه أولاً وقبل كل شئ التجديد والابتكار"[١٣].

وقبل أن ينقضي القرن الثاني الهجري، كان العرب قد أخذوا يتربعون على عرش الثقافة في العالم، يصنعون حضارة سيكون لها فاعلية كبرى في مستقبل البشرية، شكلت

(١٢) راجع: معالم على طريق تحديث الفكر العربي ـ متعن زيادة ـ عالم المعرفة، الكويت ص١٠٤.
(١٣) معالم على طريق تحديث الفكر العربي – ص١٠٨.

فيما بعد الأرضية التي قامت عليها نهضة أوروبا وما تبعها من تطورات عالمية، وقد كان عصر خلفاء العباسيين الأوائل عصر الازدهار الثقافي والحضاري في كافة الميادين.

وإذا كانت البلاد التي فتحها العرب وأقاموا عليها دولتهم مترامية شاسعة، تضم مجتمعات مختلفة ثقافياً وحضارياً، ومتفاوتة في درجة تقدمها وحظها من التطور، فقد كان من الطبيعي أن تكون التأثيرات المتبادلة بين العرب وشعوب هذه المجتمعات مختلفة ومتفاوتة أيضاً. ويلمس الدارس لحضارة العرب وتاريخها هذه الحقيقة، وهذا ما وقف عليه غوستاف لوبون حيث يقول: "تشتمل حضارة العرب التي دامت ثمانية قرون على درجات كثيرة، خلافاً لما ذهب إليه المؤرخون الذين تعودوا للبحث عن حضارة العرب أن ينظروا إليها من خلال أمة واحدة ودور واحد، وكان للعمارة والآداب والعلوم والفلسفة والدين درجات تطور مختلفة باختلاف الأقطار التي خضعت لسلطان العرب، ولم يمنع ذلك من أن يكون للعرب تراث مشترك من الناحية الدينية والناحية اللغوية، ما دام الإسلام دينهم، والعروبة لغتهم، ولكن وحدة اللغة والدين لا تعنى وحدة حضارة العرب في مختلف البلدان التي خضعت لشريعة محمد (ﷺ)"[١٤].

تابع العرب نشاطهم العلمي والعملي، وقادوا المسيرة الحضارية مواصلين المهمة التي قامت بها الشعوب التي أخذوا عنها، فأضافوا إلى ما أخذوه، وجددوا وابتكروا، فاجتذب ذلك العلماء والحكماء أهل البحث والنظر ورجال الفن والآداب من جميع الأصقاع، فكان بينهم السربان والفرس والأقباط المصريون والهنود والكلدان وغيرهم، ولم يكن العرب ليستطيعوا أن يرتقوا المرتبة العالمية التي ارتقوها لولا استعارتهم من علم غيرهم، وإفادتهم من معرفة من تقدم عليهم.

"وقد أنشأوا مؤسسات خاصة لنقل علوم هذه الشعوب، أشهرها بيت الحكمة ببغداد، وأشادوا المكتبات، فاتسع نطاق النقل وامتد على مدى قرنين من الزمان، فكان ذلك أساساً من الأسس التي قامت عليها نهضة العرب الكبرى" (٣)[١٥].

وقد لخص غوستاف لوبون هذا في عبارة موجزة حيث قال: إن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان[١٦].

(١٤) حضارة العرب ـ غوستاف لوبون ـ ترجمة: عادل زعيتر ـ طبع عيسى الحلبي، القاهرة ـ ص١٥٠.
(١٥) حركة الترجمة في المشرق الإسلامي ـ رشيد حمد حسين ـ طرابلس، ليبيا ـ ص١١٢.
(١٦) حضارة العرب ـ ص١٧٩.

وكان من الطبيعي أن يكون الأخذ والعطاء قويين خلال فترة الحكم المباشر على الأقل. أخذ الفرس عن العرب الدين الجديد، أصبحت اللغة العربية هي لغة الدين والعلم والأدب والفلسفة، وفى مقابل أخذ العرب الكثير عن الفرس، ولا سيما في المرحلة الأولى من احتكاكهم بهم، وقد أسهم ذلك في تكوين مركب ثقافي غربي جديد، ليصبح هذا المركب بعد ذلك هو الثقافة الأولى، وهو الثقافة المتقدمة التي تصب فيها جهود المثقفين العرب وغير العرب، ممن يدورون في فلك الثقافة العربية الإسلامية.

٦- علاقة الإسلام بعناصر منظومة الثقافة:

يرتبط الدين الإسلامي ارتباطاً بجميع عناصر منظومة الثقافة: الفكر، اللغة، التربية، الإبداع، الإعلام، التراث.

أما عن علاقة الإسلام بالفكر: فهي علاقة اندماج في أغلب مدارس الفكر الإسلامي، يوضحها لنا الغزالي قائلا: "لا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، ويرمى بالجهل من يكتفي بالنقل في معرفة الدين، ويرمى بالغرور من يكتفي بالعقل دون أنوار القرآن والسنة"[١٧].

وعلاقة الإسلام باللغة: علاقة لا تنفك أبداً، حيث لا يستقيم الأول إلا بالثاني، فالنصوص الدينية من قرآن وسنة لا يستقيم معناهما إلا باللغة العربية، يقول ابن تيمية: "واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون... واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، أو ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[١٨] وقال عمر ﷺ: "تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم".

إن الإسلام من دون لغة القرآن وعلوم القرآن، إسلام ناقص الماهية، واللغة العربية جزء من ماهية القرآن. يقول الأستاذ الزيات: إن المسلمين اعتقدوا بحق أن لغتهم العربية جزء من حقيقة الإسلام، لأنها كانت ترجماناً لوحي الله، ولغة لكتابه، ومعجزة لرسوله، ولساناً لدعوته، ثم هذبها النبي الكريم (ﷺ) بحديثه، ونشرها الدين بانتشاره، وخلدها بخلوده. فالقرآن لا يسمى قرآناً إلا فيها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها. لذلك سارعوا إلى تعلمها والتكلم بها، والتأليف فيها، والتعصب لها، والدفاع عنها، والدعوة إليها، حتى

(١٧) إحياء علوم الدين ـ أبو حامد الغزالي ـ ح٢ص١٣٨.
(١٨) اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم ـ ابن تيميه ـ مطبعة المدني ـ القاهرةص٢٠٣.

حلت محل الفارسية في العراق، والرومية في الشام، والقبطية في مصر، والبربرية في المغرب. وأصبحت في عصر بنى العباس ـ وهو عصرها الذهبي ـ لغة الدين والأدب والعلم والسياسة والإدارة والحضارة في أكثر الدنيا القديمة "[١٩].

ومن هنا كانت الثقافة العربية قائمة على ركنين أساسيين: الإسلام بعلومه المختلفة، واللغة بفنونها المعروفة. وهذان الركنان يشد أحدهما الآخر ويمسكه، فالثقافة العربية بغير الإسلام تنكمش وتزول، والإسلام بغير العربية يستعجم ويضمحل.

واللغة العربية وهى تختلف عن اللغات الأخرى بظاهرة نزول القرآن ومن ثم فلم تعد لغة أهلها أو لغة عصر بذاته، فيكون من حق أهل هذا العصر أو هذه الأمة أن تعمل فيها عملها.

فاللغة العربية ليست لغة قطر واحد، ولكنها لغة العرب عامة وهى لغة وطن للعرب، ولغة ثقافة لألف ومائتين مليون مسلم، ومن هنا صعوبة القول بقدرة أحد على التصرف فيها من خلف هذه الملايين، ودون إرادتهم، وبعمل قد يفسد عليهم ثقافتهم واتصالهم بالفكر الإسلامي وبالقرآن وأسس نفسه التي ارتبطت باللغة العربية ارتباطاً جذرياً.

والقرآن يضع اللغة العربية أو اللسان العربي في موقف لم تعرفه لغة من لغات البشر على كثرتها، وهذا الوضع ينطلق من عدة مسلمات:

أولها: أن القرآن كلام الله، وقد شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن ينزل هذه المعاني الإلهية بلسان عربي مبين.

وثانيها: أن موضوعات البيان القرآني ذات طابع إلهي لم تعرفه البشرية في كل لغاتها، ولم يكن للعرب عهد بمثل تلك الموضوعات.

وثالثها: أن من نزل عليه هذا البيان لم يكن ذا سمعة بيانية في شبابه، ولم يشتهر في العرب شاعراً أو خطيباً، أو مبيناً بأي فن من فنون الكلام، بل كان اهتمامه كله منحصراً في التجارة، وحديث التجارة.

ورابعها: أن هذا الكتاب قد جاء رسالة خالدة لكل الناس، في كل زمان، وفى كل مكان، مهما تقدمت الحضارة، واتسعت دائرة العلم[٢٠].

---

(١٩) نقلا من كتاب(حقيقة القومية العربية) ـ محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ ص١٨.

(٢٠) انظر: حديث عن القران ـ عبد الصبور شاهين ـ طبع أخبار اليوم ـ ص٤٠، ولا يعرف قدر القران إلا أمة ربيت على تعاليمه، وعقول ارتوت بمعينه، ونفوس مشوقة إلى بيانه، أولئك الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.

فكان القرآن معجزة اللغة والفكر معاً لكل اللغات وكل البشر، ولسوف يظل القرآن هو الآية البيانية الصوتية، والكونية والعقلية التي جعلها الله دستور هذه الأمة منذ كانت، إلى أن ينتهي هذا الخلق الأرضي، فهي ولا شك أمة القرآن، صنعتها آياته وتعاليمه، وارتباط وجودها بوجوده محفوظاً بعناية الله العليم الخبير.

وقد كفل نزول القرآن مجموعة من النتائج في وجود اللغة العربية:

أولها: أن العرب جميعاً تشبثوا باللغة الفصحى، لأنها لغة الوحي والعقيدة.

ثانيها: أن اللهجات العامية اقتصرت على حيز ضيق جداً من ممارسة الحديث الخاص بين الأفراد، مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية.

ثالثها: أن مرور الزمن، وتتابع الأجيال لم يكن له تأثير على بقاء اللغة العربية الفصحى إلا مزيداً من تفاعلها مع القرآن، حيث بقيت لغة الأمة العربية الخالدة بخلود القرآن.

رابعها: أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين في أنحاء العالم فهم يقرأون القرآن بالعربية ويتعبدون بحروفه، ويتخذون طريقة كتابته وسيلة لتسجيل لغاتهم، وهذا في حد ذاته نصر حققه القرآن للعربية، على مستوى عالمي.

خامسها: وهذا هو الأهم ـ كانت آية القرآن اللغوية إعلاناً عن صلاحية اللغة العربية علمياً وإنسانياً لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة والتعبير عنهما مهما يكن مستواها، لأن اللغة التي تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ، لابد أن تكون أقدر على التعبير عن أي مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر كل العصور[٢١].

ويقول الرافعي عن علاقة القرآن بالعربية: "إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً"[٢٢].

وخلاصة القول إن القرآن الكريم هو الذي يحفظ اللغة العربية، كما أنه ليس ممكناً تحقيق نهضة جديدة في الأمة العربية إلا على أساس العودة إلى لغة القرآن لفظاً ومعنى، تلاوة وتدبراً، نصاً وتطبيقاً.

أما علاقة الإسلام بالتربية: فتتمثل في منهجية التعليم والدعوة، حيث التركيز على

(٢١) حديث عن القران ـ ص٥٨.
(٢٢) تحت راية القران ـ مصطفى صادق الرافعي ـ دار الكتاب العربي، بيروت ـ ص٤٧.

أساليب الحوار والتفاعل، التي جاء بها الإسلام، متضمنة مسيرة النبوة بكل ما حفلت به من ألوان الحوار وأساليبه وأنواعه ومشاهده، منذ بدء الخليقة، حيث حوار الله مع الملائكة حول خلق آدم عليه السلام، وحواره ﷻ مع آدم وزوجه، وحواره تعالى مع الشيطان ، وحوار الأنبياء مع رب العالمين، وحوارهم مع أقوامهم في بيئات وأزمان مختلفة، وأساليب متنوعة الأمر الذي يشكل لأصحاب الرسالة الخاتمة مشهداً حوارياً متكاملاً لكل أساليب الحوار وموضوعاته، على مستوى الذات والآخر، كذلك مزج القيم الروحية مع المعرفة.

وعلاقة الإسلام بالتراث: علاقة تلاحم حيث التمسك بالأصول والجذور العقدية والفكرية والأخلاقية، في القرآن الكريم والحديث الشريف، والاعتزاز بلغته، لغة العلم الأولى في العالم كله لعدة قرون. إننا نمتلك تراث حافل، وكنوز من الثقافة المعرفة لا تقدر بملء الأرض ذهباً، ولا تملك أمة من الأمم عشر معشار ما نملك من تراث ثقافي[٢٣].

والعلاقة بين الإسلام والتراث علاقة عضوية، من حيث إنه لا يمكن أن يوجد تراث إسلامي من غير أن يكون هناك إسلام. وكلمة(تراث) تعنى: "إسهام الإسلام في إنجازات النوع الإنساني بكل مظاهرها، وتعنى اتصال الإسلام ولقاءه وتأثيراته على ما يحيط به من العالم غير المسلم"[٢٤] وهذا التعريف جعل الإسلام فاعلاً ومتفاعلاً، فاعلاً ومؤثراً في إنجازات النوع الإنساني، ومتفاعلاً بطريق الاتصال والتأثير في العالم من حوله.

وعلاقة الإسلام بالإبداع: علاقة وطيدة أيضاً، حيث حرية الإبداع المتمثلة في فتح باب الاجتهاد منذ بداية الإسلام، وتدريب الرسول (ﷺ) صحابته على ذلك، ومنه أنه أمر عمرو بن العاصي أن يحكم في بعض القضايا، فقال عمرو: أأجتهد وأنت حاضر؟ قال: نعم، إن أصبت فلك أجران، وإن أخطأت فلك أجر[٢٥].

ففي مجال إعمال العقل وممارسة التفكير والاجتهاد، فإن الخطأ لا يقع ضمن دائرة التجاوز والعفو، وإنما يرقى إلى مستوى آخر، مستوى الأجر والثواب، وفى ذلك ما فيه من كسر حاجز الخوف، والدعوة إلى النزوع للتفكير والإبداع، لأن الخطأ في العلميات الفكرية والعقلية هو أحد السبل للوصول إلى الصواب، فهو من الطبيعة البشر، ومقتضى حريتهم، وهو في الحقيقة طريق الوصول إلى الصواب.

(٢٣) ومع هذا لم نحول هذا التراث إلى حاضر معيش، يسرى في كياننا، ويتغلغل في وجودنا الظاهر والباطن، ويتفاعل مع كل ذرة فيها، فنمتصه ونهضمه ونتمثله، ويغدو جزءا من حياتنا اليومية، بعد أن كان جزءا من أمسنا.

(٢٤) تراث الإسلام ـ شاخت وبوزورث ـ ترجمة: محمد زهير وغيره ـ عالم المعرفة، الكويت ـ ح١ ص١٥.

(٢٥) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب اجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

وعلاقة الإسلام بالإعلام: هي علاقة متلازمة منذ بدايته، لأن الإعلام الإسلامي هو إعلام القيم التي تكمن وراء تخطيط وتطهير وتنقية كل ما يذاع ويشاع بمختلف أشكاله وأوعية فقراته الإعلامية، ليكون ذا منبت حسن، ومصب حسن، إنه إعلام الكلمة الطيبة والوعاء النظيف الذي يسهم بإعادة، بناء الإنسان، واسترداد إنسانيته، وتخليصه من العبودية لغير الله.

لقد "ارتكز الخطاب الإعلامي في القرآن والبيان النبوي على العقل، وانطلق من الوحي، وتوجه صوب الفطرة الإنسانية واستخدم الأسلوب البياني والبرهاني والعرفاني. وجاء الخطاب القرآني ثمرة للإحاطة بحال المخاطب من كل جانب"[٢٦]، لذلك اهتم القرآن بفن صياغة الكلمة، والتوجه صوب الإنسان المناسب، وأخذ بمبدأ التدرج في التربية، وبناء اللبنات الفكرية والتشريعية.

٧- الإسلام يعتبر مكوناً لثقافة غير المسلم:

إن الإسلام يعتبر مكوناً لثقافة غير المسلم الذي يعيش في المجتمع العربي المسلم، لأن وجوده في هذا المجتمع يقتضي أن يجعله مسلماً بالثقافة والحضارة، وإن لم يكن مسلماً بحكم العقيدة والديانة، لأن الأخوة بين المسلمين ليست حاجزاً دون الإخاء مع غير المسلمين، بل يرتبط المسلمون مع غيرهم برابطة الإنسانية، فالنبي (ﷺ) قال: "الناس عيال الله، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله، ولم يقل المسلمون عيال الله".

وإذا كانت الوحدة الإسلامية هي المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب، واللغة، والجوار، والمصالح المشتركة، فأية فائدة إذن أن يتحد نصارى العرب مع المسلمين منهم؟ والجواب على ذلك: إنه إذا كان القرآن جعل الرابطة الإسلامية فوق كل شيء، فإنه جعل الحق في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية، حتى أنه سوى في الحق بين المسلمين وغيرهم، ونهى عن أن تكون العداوة الدينية سبباً لحرمان الأعداء من حقوقهم، فقال تعالى: ﴿...وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢٧]. وقال في السورة نفسها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢٨].

(٢٦) تجديد الخطاب الإسلامي-للمؤلف-حوليات كلية الآداب-جامعة عين شمس، ٢٠٠٣م.
(٢٧) المائدة: (٢).
(٢٨) المائدة: (٨).

فإذا كان الشرع الإسلامي لا يبيح لمسلم أن يجور على مسيحي، أو على أي إنسان كان من غير المسلمين، ولو كان عدواً له، وللإسلام عموماً، ويوجب أن يوفر لهذا العدو حقه غير منقوص، فأي مكان بعد هذا للخوف من الاجتماع مع المسلم في مجتمع واحد؟ وأي محذور من جعل القرآن رابطة الدين فوق كل رابطة، وهي لا تقدر أن تبطل حقاً، ولا أن تحق باطلاً في معاملات المسلمين مع غيرهم.

ونحن لا نرى في اختلاف العقائد الدينية سبباً لاختلاف العقائد السياسية، بما تقدم من إثبات الروابط الأخرى التي لا يمحوها اختلاف الدين.

وقد كان الخلفاء، بنو أمية، وبنو العباس، والفاطميون، والملوك الأيوبيون، ودولة المماليك، وغيرهم يعاملون المسيحيين كما يعاملون المسلمين، ويقربونهم، ويعولون عليهم في مصالح الدولة، ويتخذون منهم خواص.

لقد اشترك في صنع الثقافة العربية والحضارة العربية الإسلامية أهل الذمة والذميون، الذين أفاضت عليهم سماحة الإسلام الحرية في المساهمة في الترجمة والتأليف.

ففي القرن الأول من خلافة العباسيين، كان المترجمون من الإغريقية إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية، هم الذين احتلوا المرتبة الأولى-على وجه الخصوص-من النشاط العلمي. وأشهر مدارس الترجمة التي وجدت في الإسلام، هي تلك المدرسة التي كان يترأسها أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي(٨٠٩-٨٧٧م)، ثم ابنه أبو يعقوب، وابن أخته حبيش بن الحسن، ذكر بن إسحاق أكثر من مائة كتاب أصيلة باللغة العربية[٢٩].

وهناك طائفة أخري من المترجمين والمؤلفين الذين كانوا من أصل صائبي، على رأسهم ثابت بن قرة الحراني، وهو من الذين مهدوا لحساب النهايات، ثم التفاضل والتكامل، ونحن مدينون له بترجمة أرشميدس وإقليدس وغيرهما، كما ندين له بكتاب الذخيرة في الطب، وهو يبحث عن علاج الأمراض بوجه خاص.

ولم يكن المؤرخون والعلماء، المعنيون بالطبقات يفرقون في صناع الحضارة العربية الإسلامية بين المسلمين والمسيحيين، حيث ترى ترجمة إسحاق ابن شليطا، الطبيب البغدادي في كتاب أبن أبى أصيبعة، في طبقات الأطباء، وتجد مع إسحاق، الطبيب الأندلسي في الكتاب نفسه، وفى كتاب القفطى في طبقات الأطباء أيضاً، ونجد إلى

(٢٩) راجع: تاريخ العلوم عند العرب-دار المعارف - ص١١.

جواريهما الطبيب الصيدلاني الذي عاش في القرن الثاني الهجري أبا حنين إسحاق العبادى، والد الطبيب الذائع الصيت حنين ابن إسحاق، وجد الطبيب والمترجم الشهير إسحاق بن حنين، تجد هذه الأسماء وعشرات غيرها، جنباً إلى جنب مع أسماء الأطباء المسلمين، والصيادلة المسلمين في كتب الطبقات.

وتجد تراجم اللغويين في طبقات أهل اللغة أو في طبقات النحاة، وتراجم الأدباء والشعراء في طبقات الأدباء أو طبقات الشعراء، وهكذا في كل فن وعلم يجد الباحث المسلمين والمسيحيين مذكورين بأعمالهم وإسهامهم الحضاري، دون نظر إلى ديانتهم.

وكثير من هذه الكتب يذكر أعلام غير المسلمين بأسمائهم المجردة وألقابهم وشهرتهم في العلم أو الفن أو الصنعة التي نبغوا فيها، دون أن يذكروا ديانتهم غير الإسلامية أصلاً، إنما كان الباحثون يقفون على هذه الديانة من النظر في كتب الأنساب التي ضمت ـ كغيرها من الكتب ـ أنساب المسلمين وغير المسلمين جميعاً.

وهذا يدل على أن إخواننا العرب غير المسلمين كانوا في هذه الثقافة أو الحضارة صناعا أصلاء، ولم يكونوا وافدين غرباء، ولا مدعين دخلاء ـ وهم بلغتنا العربية كتبوا صلواتهم وترانيمهم، ودونوا تواريخهم، وبلساننا نطق قديسوهم ووعاظهم، فما لهم من إرث وأثر في هذه اللغة فهو لنا بالقدر نفسه وما لنا فهو – كذلك ـ لهم [٣٠].

وفى العصر الحديث، هناك من نصارى العرب من يصرح بالتعبير عن أثر الإسلام فيهم وفى ثقافتهم، حيث تركوا شهادات عادلة على هذه الحقيقة التي نتحدث عنها، وذلك مثل: الزعيم السياسي مكرم عبيد في مصر الذي قال: أنا نصراني ديناً، مسلم وطناً. ويحق للآخرين كل منهم: أنا نصراني ديانة، مسلم ثقافة وحضارة.

وصلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية، فكل الثقافات مدينة للأديان في تكوينها وتوجيهها، سواء أكان هذا الدين سماوياً أم وضعياً، كما هو واضح في ثقافات الشرق والغرب.

(٣٠) صدر الجزء الأول من (معجم أعلام العرب المسيحيين في العصور الإسلامية وهو أول معجم متخصص في التعريف بالأعلام العرب المسيحيين منذ بعثة النبي (ﷺ) إلى عام ١٩٢٤م صدر عن المعهد الملكي للدراسات الدينية بعمان الذي يرعاه ويرأس مجلس أمنائه الأمير الحسن بن طلال، إن هذا المعجم صدر ليكون مرجعا علميا متعلقا بالمسيحية في العصور الإسلامية، ويبرز إسهام المسيحيين في الحضارة العربية الإسلامية في خلال ثلاثة عشر قرنا، والإنجازات والإضافات والمساهمات العلمية والفكرية والطبية والفنية التي قدمها المئات منهم إلى أمتهم.

والثقافة الغربية على سبيل المثال، هي بنت الديانة المسيحية، بعقائدها وتصوراتها، ومواريثها وتقاليدها المختلفة. وهذا ما سجله الدارسون من الغربيين. يقول "ت. س. إليوت" في تأثير العقيدة المسيحية في الثقافة والحضارة الأوربية: "في المسيحية نمت فنوننا، وفى المسيحية تأصلت ـ إلى عهد قريب ـ قوانين أوروبا. وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحي. وقد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحة، ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية، ويعتمد في معناه على تلك الثقافة"، ويقول: "ما كان يمكن أن نخرج فولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية. وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحي اختفاءً تاماً. ولا يرجع اقتناعي بذلك إلى كوني مسيحياً فحسب بل إنني مقتنع به أيضاً بوصفي دارساً لعلم الأحياء الاجتماعي. إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا"[٣١].

ومثل هذا يقال في تأثير الهندوسية في ثقافة الهند، والبوذية في ثقافة الصين وغيرهما.

وبذلك يمكننا أن نؤكد أنه لا ثقافة بغير دين، أيا كان هذا الدين.

٨ - ثقافتنا: ثقافة عربية إسلامية:

إن الثقافة التي نعتز بها، وننتمى إليها، ثقافة عربية إسلامية. ثقافة عربية بحكم اللغة الأساسية التي كتبت بها، وعبرت عنها، وبحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها، المؤثرة في أعماقها، بحكم تأثير البيان النبوي العربي، والأسوة المحمدية في مسيرتها، والعنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها، بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها، ومنطلق دعوتها.

وهى مع ذلك، وقبل ذلك، ثقافة إسلامية بلا ريب، بحكم الأهداف التي تتوخاها، والحوافز التي تدفعها، بحكم الفلسفة والتصورات التي تحركها، وتفجر طاقاتها، بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التي شاركت فيها عرباً وعجماً، والرقعة الواسعة التي كانت مجالاً لها من الصين شرقاً إلى شواطئ الأطلس غرباً.

وخلاصة القول فإن الثقافة العربية المعاصرة: قرآنية المصدر، إسلامية الانتماء.

(٣١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ـ لـ "اليوت" ـ ترجمة: شكري عياد ـ المؤسسة المصرية العامة ـ ص١٤٥.

٩ - خصائص ثقافتنا:

ولابد ـ لكي نفهم ثقافتنا ـ أن نعرف خصائصها العامة، التي ميزتها عن غيرها من الثقافات. فمن خصائصها[٣٢].

فهي ثقافة معجونة بالجانب الإلهي، فقد امتزجت فكرة الإيمان عامة، والتوحيد خاصة، بجوانبها كلها، وجرت فيه مجرى الدم في الشعيرات، في شعرها ونثرها، في أدبها وعلمها وفلسفتها، في كتب اللغة وكتب الدين وكتب العلم على اختلافها. قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشكاك، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها.

وللعنصر الأخلاقي فيها مكان رحيب، وأثر عميق، برز ذلك العنصر حتى في الجاهلية ذاتها، كما نلمسه في شعر حاتم الطائي، وعروة بن الورد، وعنترة العبسى، وغيرهم.

ثم جاء الإسلام فعمق هذا العنصر أيما تعميق، ووسعه أبلغ توسعة، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وحررها من غلو الجاهلية وغلوائها، ورفع الأخلاق مكاناً علياً حين جعلها غاية الرسالة " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[٣٣].

وندد بالعلم الذي لا يثمر خلقاً ولا سلوكاً حسناً، وفصل آداباً للمعلم والمتعلم، بل آداباً لكل شئ في الحياة، من أدب المائدة، إلى بناء الدولة.

واعتبرت الأخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبد الخالص، وإلا كاد فساد الخلق دليل فساد الإيمان، أو فساد العبادة.

الإنسانية:

ومن خصائص هذه الثقافة: الإنسانية فلحمتها وسداها، احترام الإنسان، ورعاية كرامة الإنسان، وحقوق الإنسان، فهي تقوم على اعتبار أن الإنسان مخلوق مكرم من ربه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ. . .﴾[٣٤] وأن الله جعله في الأرض خليفة، وأنه تعالى سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه. وهى تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان،

(٣٢) راجع: الثقافة العربية ـ يوسف القرضاوى ـ مكتبة وهبة ـ ص٢٥.
(٣٣) رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والبيهقى في الشعب، كلهم عن أبى هريرة، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (٢٣٤٩).
(٣٤) الإسراء: (٧٠).

بغض النظر عن جنسه أو لونه، أو لغته أو موطنه، أو طبقته، بل عن دينه نفسه، فهو مكرم بإنسانيته قبل ديانته.

العالمية:

وما دامت ثقافة لكل إنسان، فلا غرو أن تكون ثقافة عالمية المنزع والوجهة، وقد عملت على تقريب الفوارق بين بنى الإنسان، تلك التي فرقت البشر قديماً وحديثاً، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم، بيض وسود، مسلمون ونصارى ويهود، ولا تنافى بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية ووصفها بالعالمية من ناحية أخرى، فهي عالمية النزعة والوجهة، مفتوحة لكل الجماعات البشرية، غير مغلقة على نفسها، ولا متعصبة ضد غيرها.

التسامح:

لأن الدين الذي قامت عليه، يؤكد الإيمان بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية، لتأثيرهما في فكر الإنسان وسلوكه، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين، وهما:

الأولى: أن اختلاف البشر في الأديان، وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة الله ويغير سنته في الكون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ. . .﴾ (٣٥).

الثانية: أن حسابهم على ما ضلوا فيه أو انحرفوا، إنما هو إلى الله يوم القيامة، وليس إلى الناس اليوم، وفى هذا يقول الله لرسوله في شأن المخالفين: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ من كتَاب وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣٦).

ولهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين، وفسحت لهم مكاناً في مجتمعاتها.

التنوع:

فهي ليست مجرد ثقافة دينية، إنها ثقافة واسعة متنوعة، فيها الدين واللغة، والأدب، والفلسفة، والعلوم الطبيعية والرياضية، والعلوم الإنسانية، والفنون المختلفة.

---

(٣٥) هود: (١١٨ـ١١٩).
(٣٦) الشورى: (١٥).

الوسطية:

أو "التوازن" فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط للأمة الوسط، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها. ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها، إلا أن الصبغة العامة لها، والطابع الغالب عليها هو الوسطية التوازنية، المستمدة من وسطية الإسلام، ووسطية أمته، ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**...﴾[٣٧]. تجد هذا واضحاً في الوسطية المتوازنة بين العقل والوحي، بين العلم والإيمان، بين المادة والروح، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية، بين الإلهام والالتزام، بين النص والاجتهاد.

التكامل:

والتكامل فيما بين بعضها وبعض، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية، وهذه تغذى الثقافة الإنسانية، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية.

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى، فهي لا تدعى أنها تنشئ كل شئ من عدم، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة، مكملة للبناء الذي بدأه رسل الله من قبل، مصححة للمسيرة التي داخلها بعض التحريف أو الانحراف.

تلك هي خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية.

والله ولى التوفيق،،،،

(٣٧) البقرة: (١٤٣).

obeikandl.com

المصادر

١ . اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم ـ لابن تيمية ـ مطبعة المدني، القاهرة.
٢ . بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية ـ أبو الأعلى المودودى ـ دار الأنصار، القاهرة.
٣ . تاريخ العلوم عند العرب ـ أحمد سعيد الدمرداش ـ دار المعارف١٩٧٧ م.
٤ . تحت راية القرآن ـ مصطفى صادق الرافعى ـ دار الكتاب العربي، بيروت.
٥ . التراث والمعاصرة ـ أكرم ضياء العمرية ـ كتاب الأمة، قطر.
٦ . الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء ـ عبد المنعم النمر ـ دار المعارف.
٧ . الثقافة العربية وعصر المعلومات ـ نبيل على ـ عالم المعرفة، الكويت(٢٧٦).
٨ . حديث عن القرآن ـ عبد الصبور شاهين ـ كتاب اليوم ٢٠٠٠م.
٩ . الحضارة العربية في أسبانيا ـ ليفي بروفنسال، ترجمة: طاهر مكي ـ دار المعارف، القاهرة.
١٠ . حضارة العصر . . الوجه الآخر ـ مصطفى حلمي ـ دار الدعوة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢١هجرية/ ٢٠٠١م.
١١ . حقيقة القومية العربية ـ محمد الغزالى ـ دار الكتب الحديثة ـ الطبعة الثالثة ١٣٩٧هجرية/ ١٩٧٧م.
١٢ . شبهات في الفكر الإسلامي ـ أنور الجندي ـ دار الاعتصام ١٩٧٧م.
١٣ . شروط النهضة ـ مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر، دمشق ـ عام ١٩٨٦م.
١٤ . شكيب أرسلان: داعية العروبة والإسلام ـ أحمد الشرباصى ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ سلسلة أعلام العرب(٢١).
١٥ . الصراع اللغوي في عصر الحروب ـ البدراوى زهران ـ دار المعارف، سلسلة كتابك (١٦٣)، عام ١٩٨٣م.
١٦ . الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية ـ أنور الجندي ـ دار الصحوة للنشر ١٤٠٥هجرية/ ١٩٨٥م.